التحقق من صحة التقارير التاريخية عن العلاقات الدبلوماسية بين بغداد في عهد هارون الرشيد وشارلمان ملك الفرنجة في القرن الثامن الميلادي من وجهة نظر المصادر التاريخية للغرب المسيحي

أ.م. هدية تقوي(*)

مقدمة

إنَّ الحديث عن العلاقات الدبلوماسية في بغداد في عهد هارون وشارلمان لن يكون مفيداً جداً دون النظر إلى السياقات السياسية والثقافية لمجتمعاتها. تولَّى هارون السلطة في وضع كانت فيه بغداد في عصره تمر بفتراتٍ من الاستقرار السياسي النسبي والنمو الاقتصادي والثقافي الذي لا مثيل له. وأدى حُضُور الوزراء الإيرانيين المحبين للعِلم في بلاطه، وخاصةً آل برمك، إلى تعزيز العِلم والمعرفة وإنشاء المراكز العلمية وتعزيز العِمران والاهتمام بالمؤسَّسات الحضارية. إنَّ امتلاك الخلافة لاقتصادٍ ديناميكي ومتنامي دفع هارون إلى القيام بالبناء والتطوير وإعادة بناء بعض المدن وخلق الرعاية الاجتماعية. ومن جهةٍ أخرى، تزامن عصر هارون مع تطور الكتابة والتأريخ في العالم الإسلامي. وكان من المنتظر أنَّ المؤرخين الإسلاميين الذين بذلوا جهداً كبيراً في تسجيل أخبار عصره، لو كانت أخبار علاقاته السياسية مع شارلمان صحيحة، لحاولوا عكس هذهِ الأخبار في المصادر التاريخية للمشرق الإسلامي.

في الوقت نفسه، فإنَّ الظروف السياسية والاقتصادية والثقافية لعصر شارلمان، على عكس عصر هارون، شَهِدت عدم الاستقرار السياسي والصراع العسكري في الغرب. من ناحيةٍ أخرى، كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية منافسًا قويًا للحكومة الكارولنجية، ومن ناحيةٍ أخرى، كان جيران الفرنجة يهددونهم. وفي البُعد الديني، واجه العالم المسيحي انقساماً عميقاً حول القيادة الدينية للمسيحيين. وتنافس أسقف القسطنطينية مع البابا المؤيد لشارلمان، وحاول كل منهما أن يتولَّى قيادة العالم المسيحي. هذا على الرغم من أنَّ الحضارة الغربية في هذهِ الفترة، بابتعادها عن الحضارة اليونانية القديمة، لم تستطع أن تخطو خطوة مهمة نحو تطور الحضارة. إنَّ توقف وإغلاق أنشطة المراكز العلمية، وعدم الاهتمام بإنتاج الفكر المتأثر بهيمنة الكنيسة على ركائز المُجتمع، جعل شارلمان يتخذ إجراءات

(*) جامعة الزهراء / طهران.
h.taghavi@alzahra.ac.ir

ثقافية لإحياء حضارة الغرب الحديثة. ولهذا السبب إجراءاته مثل؛ إنشاء المراكز التعليمية ومحاولة خلق الوحدة في الغرب ونجاحه في بعض المعارك العسكرية مع المعارضة، جعلت المصادر التاريخية للغرب المسيحي تحوله إلى بطل عصرهِ بلا منازع وشخصية سياسية بارزة في الغرب. ويظهر هذا النوع من النظرة أيضًا في تقديم التقارير التاريخية المتعلِّقة بعلاقاته الدبلوماسية مع هارون. لذا، ومن خلال التحقق من صحة النصوص التاريخية للغرب المسيحي والشرق الإسلامي، يتناول المقال التالي العلاقات الدبلوماسية بين بغداد في عهد هارون وشارلمان، وذلك باستخدام تقنية نقد النص، وفحص درجة دقة هذهِ المعطيات والبيانات مع الواقع.

الكلمات المفتاحية: هارون، شارلمان، فرانك، اينهارد، الخلافة العباسية.

انعكاس دبلوماسية بغداد في عهد هارون الرشيد وشارلمان في النصوص التاريخية للغرب المسيحي

إنَّ فحص النصوص التاريخية للغرب المسيحي يُشير إلى أنَّ التقرير التاريخي الأول عن العلاقة بين هارون وشارلمان تمَّ التعبير عنه وبأي موضوع ومضمون، وكيف انعكس ذلك على المؤرخين والباحثين الآخرين. وكان إينهارد، مؤرخ بلاط شارلمان، أول مَن قدم تقريرًا قصيرًا في كتاب «حياة شارلمان» عن علاقاته الدبلوماسية مع هارون وإرسال الوفود السياسية إلى بلاط الأطراف. يُعتبر كتابه أول عمل تاريخي كتب خلال حياة شارلمان وهو متاح للباحثين والمهتمين بتاريخ الفرنجة. في مقدمة الكتاب، قدَّم إنهارد وصفًا موجزًا لأصولهِ الاجتماعية والعلمية وقدَّم نفسه على أنه بربري دَرَس في بلاط شارلمان.

(Einhard,1877, p.3)

وقد اعتبره دولاندلين أشهر عالم في البلاط الفرنجي (دولاندلين، ١٩٤٤: ٣٧٣/ ١). وهذا العنوان مبالغ فيه إلى حدٍّ ما؛ لأنَّ الحالة العلمية للغرب لم تكن على مستوى عالٍ خلال هذهِ الفترة، ولهذا السبب حاول شارلمان أن يخطو خطوة نحو الحضارة الحديثة للغرب من خلال إنشاء المدارس. يمكن تسمية إينهارد بمؤرخ البلاط الذي بذل الكثير من الجهد لجعل شارلمان فاضلاً. ومن الطبيعي أنه كغيرهِ من مؤرخي البلاط سلَّط الضوء على الصفات الإيجابية التي يتمتع بها شارلمان وامتنع عن التعبير عن صفاتهِ السلبية. يمكن رؤية تورط الدوافع السياسية للمؤرخ من خلال رواياته التاريخية عن معارك شارلمان. وفي وصفهِ لمعارك ملك الفرنجة، رفض ذكر الخسائر المالية وعدد الضحايا، وهو ما قد يشكل نقطة ضعف للملك. وينعكس نهج هذا المؤرخ أيضًا في التقارير التاريخية عن علاقات شارلمان السياسية مع جيرانه وأيضًا حاكم الشرق القوي هارون. إنهارد، الذي كان مستشار، حافظ أسرار ومقربة شارلمان؛ اعتبر بداية علاقاته الودية مع هارون سنة ١٨١هـ/ ٧٩٧م وذكر سبب رغبة الخليفة العباسي في إقامة علاقة ودية مع شاه فرانك

(Einhard, 1877: p.2).

«واتحد هارون مع شارلمان بسبب علاقاته الصادقة والمثالية، وكان يفضل حُسن نيته وصداقته على جميع ملوك وسلاطين العالم، ويعتبر شارلمان فقط هو المستحق للاحترام وتقديم الهدايا».

(Einhard, 1877: p.60)

تقرير إينهارد أكثر من مجرد تقرير سياسي، فهو مدح لملك الفرنجة، حتَّى أنه أذهل حاكمًا قويًا مثل هارون. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: كيف أدرك هارون صدق شارلمان وحُسن نيته في علاقاته السياسية الأولى معه؟ وفي الساحة السياسية، يصبح الصدق ذا معنى عندما يفي الطرفان بالتزاماتهما بعد المفاوضات. بينما، بحسب إينهارد هارون، أقام في البداية علاقات ودية مع شارلمان بثقة في صدقه وحُسن نيته. ومن الطبيعي أن يقدم حاكم مثل هارون، وهو في أوج قوته، المصالح السياسية إعطاء الأولوية، التي لم يتم ذكرها في منابع أخبار إينهارد. ولا شك أنه إذا صحت مثل هذهِ الأخبار، فلا بد أنَّ علاقات بغداد السياسية في عهد هارون كانت مبنية على مصالح سياسية واقتصادية، على حسبِ قولِ إينهارد وفي مقابل التنازلات التي قدَّمها هارون لشارلمان، حصل منه أيضًا على مناحات. وفي الوقت نفسهِ، لم يذكر تقرير إينهارد رغبات هارون، بل فقط رغبات وامتيازات شارلمان مثل تسليم مُلكية الأماكن المقدسة المسيحية في أراضي هارون إلى شارلمان.

(Einhard, 1877: p.60-61)

وبالنظر إلى أنه في هذا الوقت كان الملك فرانك يفكر في وحدة العالم المسيحي، فإنَّ انعكاس هذا الخبر يمكن أن يظهر نجاحه في تنفيذ هذا القرار. ولذلك فإنَّ الرواية التاريخية الأولى للعلاقة بين هارون وشارلمان تعتمد على ثلاثة جوانب، ١- جعل الملك فرانك فاضلاً وتقديم جانب إيجابي في شخصيتهِ، ٢- إبراز نجاحه في تنفيذ البرامج الدينية، ٣- إرسال هدايا قيمة من هارون إلى بلاط شارلمان. وكان يُعتقد أنه نظرًا لوجود عدو مشترك بين العباسيين والفرنج يُسمَّى أمويين الأندلس، فقد وردت الإشارة إلى هذا العدو المشترك في علاقاتهم الودية، لكن لم يرد ذكر لهذهِ المسألة في التقرير التاريخي الأول.

مصدر تاريخي آخر من الفئة الأولى باللغة اللاتينية، والذي يصف بعد إينهارد حياة شارلمان وحكمه السياسي، هو كتاب "سيرة شارلمان" لألكوين (٨٤٠-٩١٢م)، راهب دير سانت غال. وقد اعتبره دوللاندلين من مشاهير علماء عصره الذي قام بتدريس اللاتينية واليونانية من خلال إنشاء مدرسة (دولاندلن، ١٩٤٤: ١/ ٣٧٣). ألَّف هذا الكتاب في عهد شارل فيربة، حفيد شارلمان، بهدف إثبات دعم وتفضيل ملك الفرنجة للمسيحيين، وفي هذا الصدد أشار إلى العلاقات السياسية بين الخليفة العباسي وملك الإفرنج، وخاصةً جهود شارلمان في حماية المسيحيين وامتلاك مُلكية الأماكن المقدسة المسيحية في أراضي هارون، وعرض أخبارًا مختلفة عن إنهارد. راوي هذهِ الأخبار ليس سوى ألكوين نفسه.

(Alcuin, 2020)

في القرون الأخيرة، قام الباحثون المسيحيون الغربيون بتجميع العديد من الأعمال الأخرى حول موضوع المناقشة. وقد تناولت معظم هذهِ الأعمال، التي تُشير إلى كتاب إينهارد، العلاقات بين الشرق والغرب في عهد هارون وشارلمان. أندريه كلوت هى من بين الباحثين المتأخرين في كتاب "Harun al Rashid and the world of the thousand and one nights" وقد حلَّلت العلاقات السياسية بين الفرنجة والعباسيين منذ عهد بيبين والمنصور العباسي إلى عهد شارلمان وهارون. جزء مهم من معلوماته التاريخية، خاصةً فيما يتعلَّق بإرسال الهدايا من قبل الخليفة العباسي وملوك الفرنجة، يعتمد على تصريحات انهارد، فقد قدم تحليلا للعوامل المؤثرة على علاقاتهم السياسية، وأي فرضيات تتعلق بأهدافهم السياسية للمواجهة ورفض أي افتراضات حول أهدافهم السياسية في مواجهة العدو المشترك، الأمويين الأندلسيين.

(André Clot, 1989, p.20-24)

اعتمد باحث آخر في الغرب المسيحي، هو بارتن شلود (Barton Sholod)، على البيانات التاريخية لإينهارد في الكتاب: Charlemagne in Spain the cultural legacy» of Roncesvalles"، وشدَّدت على محاولة شارلمان للحصول على ملكية الأماكن المقدسة المسيحية في الأراضي الواقعة تحت نفوذ هارون.

(Barton, 1966, p.97-98)

آن لاتوسكي (Anne A. Latowsky)، في كتاب: "Emperor of the world Charlemagne and the construction of imperial Audority 800-1229"، ورغم أنها قامت بتحليل موجز للسياقات والصراعات السياسية بين القوى الغربية والشرقية في عهد هارون وشارلمان، إلَّا أنها بالاعتماد على معلومات اينهارد التاريخية حدَّدت العلاقات السياسية، ومن المعروف إرسال الوفود السياسية بين هارون وشارلمان وتبادل الهدايا بينهما. ورغم أنه قام بتحليل موجز للسياقات والصراعات السياسية بين القوى الغربية والشرقية في عهد هارون وشارلمان، معتمداً على معلومات اينهارد التاريخية، إلَّا أنه اعتبر أنَّ العلاقات السياسية بين هارون وشارلمان تقتصر على إرسال وفود سياسية وتبادل الهدايا بينهم.

(Anne A. latowsky, 2013: p.47-49)

وقد كرَّر روجر كولينز (Roger Collins)، كغيرهِ من الباحثين، تحليل الباحثين السابقين في كتابهِ "Charlemagne"، معتمداً على بيانات اينهارد التاريخية.

(Collins, 1998, p.152-155)

في أطروحته للدكتوراه بعنوان: "عصر شارلمان"The age of Charlemagne، اعتبر تشارلز ويلز علاقة شارلمان السياسية بهارون من أهم أحداثه السياسية ووصفها

بإيجاز. لكن كل بياناته التاريخية مأخوذة من الأخبار التاريخية، ولم يقل شيئاً جديداً.
(Charles K. Wells, 1898, p.261-262)

لذلك، فمن المؤكد أنه لا توجد معلومات تاريخية دقيقة وموثوقة في مصادر الغرب المسيحي تسمح للباحث بتحليل العلاقات الدبلوماسية لبغداد في عهد هارون وشارلمان. ونظراً لخلط المصادر التاريخية للغرب المسيحي، فإنه لا يمكن الحديث بوضوح وثقة عن العلاقات الدبلوماسية لبغداد في عهد هارون وشارلمان، لكن يفترض أنَّ العلاقات التجارية بين الغرب والشرق كانت مستمرة، وربما قدَّم التجار الهدايا لملك فرانك وحاولوا خلق بيئة مناسبة لتوطيد العلاقات التجارية. وبالإضافة إلى ضعف المصادر التاريخية للغرب المسيحي في هذا الصدد، فإنَّ إعادة قراءة لوحات الغربيين فيما يتعلَّق بموضوع البحث يمكن أن تكون فعَّالة أيضًا في التحقق من صحَّة الموضوع.

إعادة قراءة اللوحات المتعلِّقة بدبلوماسية بغداد في عهد هارون وشارلمان في الغرب المسيحي

وأشهر لوحة تصور حضور وفد شارلمان في بلاط هارون الرشيد، هي لوحة لجوليوس كوتشترز (١٨٢٧-١٩١٨)، الرسام الألماني. وفي عام ١٨٤٣، إبتَدَر كوكترز إلى فن الرسم في أكاديمية بيراك ورسم لوحات مستوحاة ومتأثرةٍ من الطبيعة والجبال والغابات. وفي عام ١٨٤٦، قدَّم صورة للعلاقات الدبلوماسية بين هارون وشارلمان بلوحةٍ بألوانٍ مائية، يتم تحليلها باعتبارها وثيقة تاريخية.

في هذهِ اللوحة، العلامات المستخدمة ليست متسقة تمامًا مع الوثائق التاريخية. وكما هو واضح، فإنَّ هارون يُصوَّر بالعمامة والثوب الأبيض، والعباءة الملكية، واللحية الطويلة، ويده اليُمنى واضعة على فخذيه. أمَّا الكرسي، أو السرير الذي يجلس عليه هارون، فهو بسيط ولا تظهر عليه أيَّ علاماتٍ لافتة ملكية في حضور وفد شارلمان. إنَّ هذا التصوير لهارون بناءً على المصادر التاريخية فيه عدَّة مشاكل أساسية وجدية، وفي بعض الأحيان يكون مخالفًا للواقع التاريخي في عصر هارون. عُرف العباسيون في تاريخ الإسلام بأنهم يرتدون السواد، ويلبسون السواد؛ لأنهم عندما دعوا الناس للثورة للوصول إلى السلطة، ارتدوا الملابس السوداء حداداً على ضحايا السلالة الهاشمية الذين قتلهم الأمويون، ومنذ ذلك الحين أصبحوا يُعرفون بالأمويين السود (وعُرفت ثورتهم بثورةِ رجال الرداءِ الأسود). كما لبس الخلفاء العباسيون الرداءِ الأسود (المقدسي، بيتا، ٦/ ٦٧-٦٨). وفي فترة خلافة المنصور العباسي (١٥٣هـ/ ٧٧٠م)، عندما لبس العباسيون القلنسوة (القبعة الطويلة المخروطية الشكل) تحت تأثير الحضارة الإيرانية، أمر المنصور العباسي بربط عمامة صغيرة عليها، ولبس العباسيون ثوباً أسود فوق الملابس، وهو لباس يغطي الملابس الأخرى تماماً؛ حتَّى لبس القلنسوة اعترض عليه شاعر العصر العباسي البارز أبو دلامة، ولامَ المنصور على هذهِ البدعة (الطَّبري، ٢٠٠٧: ٨/ ٤٢-٤٣). وقال في قصيدة: "كنا نأمل الزيادة من الإمام، لكن الإمام المنتخب يضع القبعات على رؤوس الرجال كأنهم يضعون القبعات على قدور اليهود" (الطَّبري، ٢٠٠٧: ٤٣/ ٨). واستمر هذا الأسلوب حتَّى خلافة المأمون، ابنه وخليفته، عندما كان في مرو بخراسان، مع تغيير إستراتيجي سياسي ولجذب انتباه العلويين، ارتدى الملابس الخضراء لفترةٍ قصيرة، وبعد ذهابه إلى بغداد، واصل نفس التقليد العباسي في ارتداء الملابس السوداء (اليعقوبي، بيتا: ٤٤٨/ ٢). وفي صورة كوكتراس يمكن ملاحظة تغيير ملابس الخليفة العباسي وارتِدَادهِ عن التقاليد والأسلوب الذي كانا ملتزمين بهِ. وبجانب هارون هناك كهنوت مسيحي، وهو في نفس الوقت ينظر إلى هارون، ويُشير بيده إلى جنود الإفرنج الموجودين بجانبهِ بالزي العسكري، الأسلحة الثقيلة وخوذاتهم. المعنى الذي تثيره هذهِ الصور وترتبط مع بعضها البعض بالنسبة للقارئ هي القوة العسكرية والسياسية والدينية للغرب ضدَّ الشرق. طريقة وقوف الكاهن المسيحي، الذي أمامَهُ المسيحيين القلقين وأيضاً جنود شارلمان الحاضرين بجانبهِ، تستحضر بطريقةٍ ما محاولة شارلمان لحماية المسيحيين في أراضي هارون. إنَّ تجاور هذهِ العلامات وإشاراتها - إضافة إلى التأكيد على الجمع بين الدين والسياسة في هذهِ الفترة من التاريخ الغربي - جعل هارون على رأس طريقي الحرب أو تسليم ملكية الأماكن المسيحية إليهم. في هذا الجزء من اللوحة، يتم وضع ممثلي شارلمان في موقع قوة متفوقة أمام خليفة الشرق الأكبر - والذي هو أقل إثارة للإعجاب من حيث الوضع والمكانة، طريقة الجلوس والكرسي المستخدم. في الواقع، يصور هذا الجزء من اللوحة البرنامج والأهداف التي كان شارلمان يحاول تنفيذها، خاصةً وحدة

المسيحيين، التي ذكرها إينهارد أيضًا.

والغريب في هذه اللوحة صورة امرأة خائفة وبين ذراعيها طفل، ويبدو أنها تستجدي الكاهن المسيحي المساعدة والدعم. وما يستثيره من هذه الصورة للقارئ أنَّ المسيحيين كانوا يعانون من الضغوط والمشاق في عهد هارون، وكانوا يأملون الفرج من الصداقة بين هارون وشارلمان. بمعنى آخر، انتبه شارلمان إلى نداء ودعوة القمع والاضطهاد التي تعرض لها المسيحيون في عهد هارون. هذا في حين أنَّ المصادر التاريخية للمشرق الإسلامي قدَّمت صورة مختلفة عن أحوال المسيحيين والأقليات الدينية الأخرى في أراضي الخلفاء العباسيين. في العصر العباسي كانت بغداد مكاناً لتواجد غير العرب وحتَّى غير المُسلمين منذ البداية. وكان عدد كبير من الإيرانيين والمسيحيين واليهود من ذوي الخبرة الإدارية موجودين في النظام الإداري العباسي. وقد وثق أبو جعفر منصور بمهارة المسيحيين وخبرتهم وأعطاهم منصب قِسم خزانة الدولة. ولم يعصُ الخلفاء من بعد هارون، مثل المعتصم، من إسناد المناصب المهمة للمسيحيين. وعيَّن مسيحياً اسمه سلمويه سكرتيراً ومستشاراً له، ولم تكن وثيقة صالحة إلَّا بتوقيعه (ابن العبري، ١٩٩٢: ١٤٠). ووفقاً للشريعة الإسلامية والحفاظ على حقوق الإنسان، كان غير المُسلمين يعيشون في تفاعل وتعايش سلمي في الأراضي العباسية حسب الاتفاق الذي أنعَقدَ بينهم وبين الحاكم. وكانوا يدفعون للخلافة ضريبة سنوية تُسمَّى الجزية، وفي المقابل كانت الحكومة مسؤولة عن الحفاظ على أمن الأرواح والممتلكات ومنحهم حقوق الإنسان. ولهذا السبب كان للمسيحيين في شرق البلاد العباسية الحرية الكاملة في أداء مراسمهم وشعائرهم الدينية (مؤلف المجهول، ١٣٩١: ٢١١). ويُقال إنَّ بعض خلفاء العباسيين شاركوا في احتفالاتهم احتراماً لهم وأمروا بدعمهم. فحزن بعض المسيحيين، ومنهم شخص اسمه فضل بن مروان وزير المعتصم، وكان أحد مستشاريه وأفراده الموثوقين، حزنَ شديداً لوفاته، وأمروا بإحضار المعتصم إلى القصر وتكريمه بمراسم رفيعة بحسب التقاليد المسيحية (ابن خلكان، بيتا: ٤/ ٤٥).

ويبدو أنَّ هذه اللوحة تستحضر قوة الحاكم المسيحي شارلمان في مواجهة قوة هارون، بدلاً من إظهار العلاقات السياسية والدبلوماسية بين قوتي الشرق والغرب في الفترة المعينة. في الواقع يظهر هارون في هذه اللوحة في وضعية سلبية وفي حالة خضوع، ولا يوجد في الصورة تشابه جدًا للخليفة العباسي القوي الذي كان نطاق نفوذه واسعًا في الشرق وكان يعتبر قوة عظمى في أمام الإمبراطورية الرومانية.

وفي لوحة أخرى لا يُعرف فنانها، يقف شارلمان بقوة أمام ممثلي هارون. في هذه اللوحة، بينما ينحني ممثلو هارون أمام شارلمان كدليل على الاحترام، يقدمون له هداياهم، لكن على عكس صورة هارون الضعيفة في لوحة كوكترز وممثلي شارلمان فيها، فإنَّ شارلمان في هذه اللوحة في موقع قوة ومكانة ملكية، ويظهر ممثلو هارون في وضع أضعف. على عكس الصورة السابقة التي أظهرت هارون في الهواء الطلق وببساطة شديدة، يظهر شارلمان داخل القصر الملكي مرتديًا التاج الملكي ومحاطًا بخَدم وبحاشية.

تتوافق العلامات المستخدمة في هاتين اللوحتين مع التقارير التاريخية لإينهارد. ويبدو أنَّ أساس فكرة هذه اللوحات مأخوذة أيضًا من مواده التاريخية التي استخدمها أيضًا المؤرخون اللاحقون. كما قام بعض الباحثين المعاصرين في الشرق بتحليل العلاقات السياسية بين هارون وشارلمان، متأثرين بإينهارد وغيره من المصادر المسيحية الغربية، حيث لم تصلهم معلومات تاريخية في المصادر الشرقية، وتختلف تحليلاتهم إلى حدٍّ ما عن نوع التصوير في اللوحات وتصورات الباحثين الغربيين، واعتبروا وحدة قوتي الشرق والغرب في التعامل مع الأمويين الأندلسيين، الذين كانوا العدو المشترك لهارون وشارلمان، أحد الأسباب الرئيسة والمؤثرة في قيام العلاقات السياسية بين الخليفة العباسي وشارلمان ملك الفرنجة (عنان، ١٣٧٠: ١/ ٢٥٠؛ طقوش، ١٣٨٠: ١٠٢-١٠٤). وقد أشار الباحث عبد العزيز الدوري إلى هذه النقطة أيضاً، ويرى أنَّ الأخبار التاريخية حول هذا الحدث في المصادر الغربية معقدة وغير موثوقة (الدوري، ١٩٩٧: ٢/ ١١٧). ويبدو أنَّ وجهة نظره صحيحة؛ لأنه عندما لا يذكر هذا الخبر التاريخي المهم إلَّا مؤرخ بلاط شارلمان، فلا يمكن الوثوق به كثيرًا. وهذا الأمر أكثر شكًا عند دراسة المصادر التاريخية للمشرق الإسلامي.

انعكاس دبلوماسية بغداد في عصر هارون وشارلمان في النصوص التاريخية للمشرق الإسلامي

بدأ التأريخ الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري، وتمَّ كتابته بعدة طرق. ومن أنواع التأريخ الإسلامي التاريخ العام وتاريخ السلالات، الذي يُذكر فيه الأخبار والأحداث السياسية المتعلقة بالخلافة الإسلامية، بما في ذلك الخلافة العباسية. لقد انعكست الأحداث الداخلية والصراعات الدولية والعلاقات بين الخلفاء والحكومات المجاورة وما إلى ذلك على نطاق واسع في هذه الكتب. ومع الاحتفاظ بالترتيب الزمني للمصادر التاريخية، يتناول المقال التالي الأخبار المتعلقة بالعلاقات الدبلوماسية في بغداد عهد هارون وشارلمان.

أول كتاب في التاريخ العام نقل الأخبار السياسية في فترة الخلافة العباسية هو كتاب تاريخ الخليفة لخليفة بن خياط (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م). وعلى الرغم من الحرص والدقة على ذكر الأخبار السياسية للمُجتمع الإسلامي حتَّى عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، والتي تشمل فترة خلافة هارون، فإنَّ هذا الكتاب لم يذكر أي علاقات دبلوماسية بين هارون وشارلمان (خياط، ١٤١٥: ٣٠٠-٣٠٦). ومن بعده ألَّف ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ/ ٨٩٠م)، أحد مؤرخي الخلافة العباسية السُّنية كتاباً بعنوان: "الإمامة والسياسة". كما نقل، مثل ابن خياط، الأحداث السياسية للمُجتمع الإسلامي في عهد الخلافة العباسية. ونظراً لوجوده الفعَّال في البلاط العباسي، فإنه لم يذكر هذا الخبر في كتابه (ابن قتيبة الدينوري، ١٤١٠هـ: ٩-١٠). وقد روى أبو حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٦م)، وهو أحد المؤرخين الإسلاميين الأوائل المعاصرين لابن قتيبة، أحداث عصر الخلافة العباسية حتَّى عهد المعتصم (ت٢٢٧هـ/ ٨٤١م) في كتاب بعنوان: "الأخبار الطوال". ورغم ذكر العديد من الأحداث السياسية في عصر هارون، إلَّا أنَّ هذا المؤرخ لم يذكر أي خبر عن إرسال وفود شارلمان السياسية إلى بغداد أو نيابة عن هارون إلى بلاط الفرنج (الدينوري، الأخبار الطوال، ١٣٦٨هـ: ٣٨٧-٣٩٢). ومن بعده كان اليعقوبي (ت٢٩٢هـ/ ٩٠٦م) من مؤرخي البلاط العباسي. وقد جاء جده الأكبر واضح من أتباع المنصور العباسي إلى حكومة أرمينيا ثمَّ أذربيجان سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٢هـ). (اليعقوبي، البلدان، ١٤٢٢هـ: ٥). كما أنه كان والياً على مصر في خلافة الهادي، وقُتل بسبب مناصرته لإدريس بن عبد الله، لكن اليعقوبي حافظ على علاقاته الودية مع البلاط العباسي وأورد أحداثها السياسية في كتابه تاريخه. ورغم أنَّ اليعقوبي قدَّم وصفاً مفصلاً لعلاقات هارون الخارجية، بما في ذلك علاقاته السياسية والعسكرية مع الروم، فإنه لم يذكر تقريراً عن علاقته السياسية مع شارلمان (اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بى تا: ٤٧٩-٤٨٤).

مصدرٌ آخر مهم للتاريخ الإسلامي الشرقي، الذي يروي أحداث العصر العباسي بالترتيب الزمني، هو تاريخ الطَّبري. وقد نقل الطَّبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٤م) الأخبار والأحاديث الواردة في كتابه وترك صحة الأخبار للقارئ. إنَّ عدم ذكر خبر صداقة هارون وشارلمان في هذا الكتاب يجعل الباحث يشك جدياً في صحة هذا الخبر؛ لأنَّ الطَّبري اهتم كثيراً بذكر أخبار السياسة الخارجية لبغداد في عهد هارون مع جيرانه، وقد قام بتفصيل أغراض وقضايا مثل علاقات هارون السياسية مع الروم (الطَّبري، ١٩٦٧: ١٠/ ٣٢-٩٧) . وبعد الطَّبري، كان المسعودي (ت٣٤٥هـ/ ٩٥٩م) من أبرز المؤرخين المُسلمين الذين ألَّفوا كتابين بعنوان: «التنبيه والإشراف» و«مروج الذهب ومعادن الجوهر». وعلى عكس المؤرخين السابقين، لم يكن مجرد مراسل للأخبار التاريخية، بل قام أيضًا بتحليلها كباحث. ونقل الأخبار المتعلقة بالطائفة الإسلامية، حتَّى الاشتباكات والمعارك العسكرية لدولة الأندلس الإسلامية وشارلمان، لكنه لم يُشر إلى العلاقات السياسية بين هارون وشارلمان (المسعودي، التنبيه والإشراف، بيتا: ٢٩٩-٣٠٠ ؛ المسعودي،

مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٤٠٩هـ: ٣/ ٣٣٦-٣٨٧).

وفي مصادر الفئة الثانية من تاريخ المشرق الإسلامي ليس هناك خبر عن ذلك، ولم يذكر المقدسي (ت٣٨١م) في كتابهِ " البدء والتاريخ" هذا الخبر، كما ذكر المؤرخون السابقون (المقدسي، بيتا: ٦/ ١٠١-١٠٧). ومن بعده، أورد ابن مسكويه (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٥م) في كتابه "تجارب الأمم" بعناية أخبار وأحداث عصر هارون، بما في ذلك علاقاته الخارجية مع الروم، لكنه لم يذكر شيئاً عن علاقات هارون السياسية مع الروم ملك الفرنجة (ابن مسكويه، ١٣٧٩هـ: ٣/ ٥٠٣- ٥٥٥؛ ٤/ ٥-٢٥). ومن بعده، فإنَّ ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢١١م) في كتابهِ "المنتظم في تاريخ الأمم والملوك" رغم تقديمه التقرير الإخباري السياسي لعصر هارون، لم يذكر شيئاً في هذا الصدد (ابن الجوزي، ١٤١٢هـ: ٩/ ٣-١٩٣). عدم ذكر هذا الحدث السياسي من قبل مؤرخين مسلمين بارزين، وكان بعضهم حاضراً أيضاً في البلاط العباسي وشهدوا عن كثب العلاقات السياسية للخلفاء، وتتجلَّى افتراضات الباحث في رفض الارتباط بين دبلوماسية بغداد في عهد هارون وشارلمان. وقد ذكر ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٤٤م)، أحد مشاهير مؤرخي القرن السابع الهجري، في كتابه «الكامل في التاريخ» مثل المؤرخين السابقين، رغم تقديمه قدرًا كبيرًا من المعلومات السياسية للحضارة الإسلامية. الشرق والغرب، ولم يذكر العلاقات السياسية بين هارون وشارلمان (ابن الأثير،١٩٦٥: ٦/ ٩٦-٢١٠).

وبعد قرنٍ من ابن الأثير، جمع شمس الدين مُحمَّد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٧هـ/ ١٣٦١م) كتاب "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" في ٥٢ مجلداً. ورغم أنَّ هذا الكتاب لا يقتصر على الجانب العام والتعبير عن الأحداث التاريخية، إلَّا أنه قدم المشاهير والشخصيات البارزة بتسلسل زمني، إلَّا أنه في المجلَّدات ١١ و١٢ و١٣ ذكر الأحداث السياسية في عصر هارون وقد تضمنها أحداث كل عام تحته. وهذا المؤرخ، رغم اهتمامه بالعلاقات بين هارون والرومان، وكذلك بأحداث الغرب الإسلامي، لم يذكر العلاقات بين هارون وشارلمان (الذهبي، ١٩٩٣: ١١/ ٥-٣٦؛ ١٢/ ٥-٤١؛ ١٣/ ٥-٧٥). ولم يقدم ابن كثير، وهو أحد المؤرخين الآخرين المعاصرين للذهبي (ت٧٧٤هـ/ ١٣٨٨م)، أي خبر عن هارون وشارلمان في كتابه «البداية والنهاية»، رغم تأكيده على حروب هارون الصيفية مع الروم (ابن كثير، ١٩٨٦: ١٠/ ١٦٠-٢١١). ورغم أنَّ ابن خلدون (ت١٤٢٢هـ/ ٨٠٨م) والسيوطي (ت١٥٢٥م/ ٩١١هـ) لديهما تقارير مفصلة عن الأخبار المتعلِّقة ببغداد في عهد هارون، إلَّا أنهما لم يقدما تقريراً عن علاقاته الدبلوماسية مع شارلمان (ابن خلدون، ١٤٠٨هـ: ٣/ ٢٧٢-٢٨٨؛ السيوطي، ٢٠٠٤: ٢٥٦-٢٦١). إنَّ عدم اهتمام المؤرخين المُسلمين في شرق الخلافة الإسلامية في هذا المجلَّد بمثل هذهِ القضية المهمة يُثير الشكوك حول نوعية الأخبار التي يقدمها مؤرخو الغرب الإسلامي المسيحيون في هذا الشأن؛ لأنه كما قيل، لأول مرة، ورد هذا الخبر في المصادر التاريخية اللاتينية بطريقة فوضوية ومبعثرة ومن أجل جعل شارلمان أكثر فضيلة.

الخاتمة

التقارير التاريخية في المصادر هي البيانات التي قام المؤرخ بجمعها، ومن ثمَّ سجلها حسب أصوله السياسية والعقائدية والاجتماعية. ولذلك فإنَّ هناك احتمالاً للتدخل العقلي للمؤرخ في اختيارها وترتيبها، وهذا كان أمرا لا مفر منه خاصةً في حالة مؤرخي البلاط الذين كتبوا التاريخ من أجل متعة الحكَّام.

تُشير دراسة التقارير التاريخية للعلاقات الدبلوماسية في بغداد في عهد هارون الرشيد وشارلمان في القرن الثامن إلى ترتيب الأخبار وتماسكها وتواترها (الخبر مذكور في العديد من المصادر)، والترتيب المنطقي للسرد، الرواة الثقات وغيرهم، وسطح هذهِ الأخبار غير موثوق وضعيف جداً. إنَّ نقل خبر تاريخي مهم يمكن أن يكون له تأثير كبير على العلاقات السياسية بين قوتي الشرق والغرب، لا ينبغي أن يتم التعبير عنه بطريقةٍ أُحادية الجانب. هذا على الرغم من أنه منذ عهد هارون فصاعدًا، كان تأريخ الشرق الإسلامي في طريق النمو وكان هناك العديد من المؤرخين البارزين حاضرين في البلاط العباسي. ومما لا يعقل أنَّ مؤرخي المشرق فشلوا في تسجيل هذا الحدث. والواضح من الأدلة أنه كانت هناك علاقات بين بغداد والفرانك في هذهِ الفترة، لكن هذهِ العلاقات لم تكن على المستوى السياسي والماكرو؛ لأنه لا يوجد أي مؤشر على وجود اتفاق سياسي يضمن مصالح الطرفين. وتُشير الأدلة إلى أنَّ هذهِ العلاقات كانت في أغلبها في اتجاه العلاقات الاقتصادية والتجارية بين التجار المُسلمين مع البلاط الفرنجي؛ لأنه خلال هذهِ الفترة كان الاقتصاد الإسلامي ينمو ويتم تصديرُ منتجاتهم إلى مناطق مختلفة بما في ذلك أوروبا. ومن شبه المؤكد أنَّ التجار الذين حضروا بلاط شارلمان كانوا من التجار ورجال الأعمال في بلاط هارون، كما قاموا بأعمالٍ تجارية لصالح الخليفة نفسه. لكن إنهارد قدمهم بذكاء إلى المجلس السياسي لجعل شارلمان فاضلاً. سَبَبَت هذهِ الإجراءَات خلفيةِ رائعة لشارلمان؛ لأنها أظهرت له إلى حد أنه لم يكتفِ بإقامة علاقات ودية مع خليفة بغداد القوي الذي امتدت قوته إلى الشرق والغرب في ذلك الوقت، بل تمكن حتَّى من الحصول على امتيازاتٍ مثل ملكية الأماكن المقدسة المسيحية، بما يتماشى مع أهدافهِ. مثل هذا التصوير من قبل مؤرخ البلاط الذي كان كتابه كله في مدح وفضيلة شارلمان ليس مفاجئًا.

قائمة المصادر والمراجع

ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٦٥.

ـ ابن جوزى، عبد الرحمن بن على بن محمد، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

ـ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحاده، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨.

ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، دار الفكر، بيتا.

ـ ابن خياط، خليفة، تاريخ خليفة،تحقيق فواز، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥.

ـ ابن قتيبة دينورى، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق علي شيري، بيروت، دار الأضواء، ١٩٩٠.

ـ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٦م.

ـ ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار الشرق، ١٩٩٢م.

ـ ابن مسكويه، تجارب الأمم، التحقيق أبو القاسم امامى، طهران، الناشر سروش، ٢٠٠٠م.

ـ أبو جعفر محمد بن جرير طبرى، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار التراث، ١٩٦٧م.

ـ دولاندلن، شارل، التاريخ العالمى، الترجمة احمد بهمنش، طهران، الناشر الجامعة طهران، ١٩٩٤.

ـ الدورى، عبد العزيز، العصر العباسى الأول، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٩٧.

ـ دينورى، أبو حنيفة، الأخبار الطوال، التحقيق عبد المنعم عامر مراجعة: جمال الدين شيال، قم، منشورات الرضى،١٩٨٩م.

ـ ذهبى، شمس الدين محمد بن احمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، التحقيق: عمر عبد السلام تدمرى، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٣م.

ـ سيوطى، عيد الرحمن بن أبي بكر ابن محمد جلال الدين، تاريخ الخلفاء، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٤م.

ـ طقوش، محمد سهيل، الدولة العباسية، الترجمة: حجت الله جودكى، طهران، مركز بحوث الحوزة والجامعة، ١٣٨٠ش.

ـ عنان، محمد عبد الله، التاريخ الدولة الإسلامية فى الأندلس، طهران، الناشر كيهان، ١٣٧٠ش.

ـ مسعودي، أبو الحسن على بن الحسين، التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوى، القاهرة، دار الصاوي، بى تا.

ـ مسعودي، أبو الحسن على بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: اسعد داغر، قم، دار الهجرة، ١٤٠٩ق.

ـ مقدسى، مطهر بن طاهر، البدء

والتاريخ، بور سعيد، مكتبه الثقافة الدينية، بى تا.

_ مؤلف المجهول، أخبار الدولة العباسية، بيروت، دار الطليعة، ١٣٩١ق.

_ يعقوبى، احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب واضح، تاريخ اليعقوبى، بيروت، دار صادر، بى تا.

_ يعقوبى، احمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب واضح، كتاب البلدان، محمد أمين ضناوى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢.

_ Alcuin, the life of Charlemagne, Published by Wyatt North Publishing, 2020.

_ Barton, Sholod, Charlemagne in Spain: the cultural legacy of Roncesvalles, Genève librairie droz II, Rue, Massot, 1966.

_ Collins, Roger, Charlemagne; University of Toronto press Toronto buffalo, 1998, pages 152, 170

_Clot, André, Harun al Rashid and the world of the thousand and one nights, 1989

_ Einhard, the life of the emperor Karl the great, translated by William Glaister, M.A, Oxford, university college, 1877.

_ Latowsky, Anne.A. Emperor of the world Charlemagne and the construction of imperial Audority 800 -1229, Cornell university press Ithaca and Lendon, 2013.

_ Joranson, E, The Alleged Frankish protectorate in Palestine, Published by Oxford University Press, 1927.

_ Wells. Charles. L, The age of Charlemagne (Charles the great), University of Minnesota, 1898.

Validation historical reports of diplomatic relations between Baghdad in the era of Harun al-Rashid and Charlemagne, the king of the Franks, in the 8th century AD from the view of the historical sources of Christian West

Hedieh Taghavi

Al-Zahra University / Tehran, Iran

Abstract

The 8th century AD was a turning point in the diplomatic relations of Baghdad during the era of Harun, Abbasid Caliph and Charlemagne or Carlos Mageus - Founder of the Holy Roman Empire and nicknamed the father of France and Germany - He was the king of the Franks. According to the historical sources of the Christian West, during this period, Franks and the Abbasid Caliphate were involved in political conflicts. Friendly relations between Harun and Charlemagne were established and led to the sending of political delegations.

This is despite the fact that in the historiographical sources of the Islamic East, there is no historical report about the mentioned political relations. The different treatment of the historical sources of the Christian West and the Islamic East regarding the subject under discussion, caused this article to examine the historical texts of the Christian West and the Islamic East by validating the original news. For this purpose, using news criticism techniques such as examining parallel narratives, searching for news in contemporary historical sources, etc., First, it identifies the first narrator and source of the news and then will discuss how it is reflected in other historical texts.

Key words: Haroun, Charlemagne, Frank, Enhard, Caliphate Abbasi.